

دعامة بيداغوجية موجهة لطلبة السنة الأولى ماستر

التخصص: تاريخ الوطن العربي المعاصر

المقياس: أعلام الفكر الإصلاحي والسياسي في الوطن العربي

الأستاذ/ د. عبد القادر خليفي

المحاضرة التاسعة: القومية العربية: مفهومها، دوافعها، ومراحل تطورها

1ج

تمهيد/ يعد التاريخ للفكر القومي، من حيث بدايات الظهور وتفسير النشوء، وتحديد الطبيعة والمحتوى، من أكثر القضايا إثارة للجدل والاختلاف بين الباحثين والدارسين في الشرق والغرب، ومن هذا المعطى، لا غرابة إذن في أن نسجل تلك الاختلافات المتعلقة بتعدد التعاريف التي صاغها المفكرون العرب، من بين أولئك الذين تركوا بصماتهم في هذا الباب، ومن ثمة، كان طبيعياً للغاية ألا يحصل التوافق والاتفاق فيما بينهم، حول مفهوم مرجعي مضبوط، ذلك أن المسألة تتحكم في طرحها الأيديولوجيات، والمنطلقات، والمعتقدات، وهي التي سمحت بظهور تخريجات ومقاربات متنوعة، وصلت إلى حد التضارب.

في الواقع، لقد دأبت الكتابات على اعتبار القرن التاسع عشر عصر القوميات، وهي الظاهرة السياسية والاجتماعية التي حفلت بها القارة الأوروبية، بفعل عوامل متعددة، لا يمكن الغوص في استعراضها هنا، لأنها ستذهب بنا بعيداً عن الموضوع المطروق، وفي هذا المناخ، بدأ تنامي الوعي القومي العربي على التضاد مع الحكم التركي، مطالباً بالاستقلال، وبالوحدة العربية، لاسيما في مطلع القرن العشرين، ثم انبرى بعد الحرب العالمية الأولى، لقيادة حركات التحرر الوطني ضد الاستعمار الغربي المتكالب على المنطقة، واقترباً من النصف الثاني من القرن العشرين، وما بعده، تطور الفكر القومي على شكل مشروعات سياسية حاكمة، على شاكلة الناصرية في مصر، والبعثية في سوريا والعراق، وعملياً، اكتسح الساحة السياسية والشعبية في الوطن العربي إلى منتصف السبعينيات من القرن الماضي، ليعرف تراجعاً وانحساراً في العقود اللاحقة.

القومية مصطلح ومفاهيم: لقد تعددت التعريفات التي حاولت الإحاطة بهذا المصطلح، بحسب تباين منطلقات وعقائد واضعيتها، فهي ذات مفهوم واسع، وهي من المعاني التي تظغى فيها الصعوبة على السهولة ويمكننا أن نعتمد هنا جملة منها يخص القومية

العربية، وهي تعبر عن اتجاهات فكرية متميزة من اليمين إلى اليسار، لكنها تشترك في إيمانها بوجود الفكرة، وباحتمية بعثها بصيغة من الصيغ.

يعرفها محمد مصطفى زيدان، بأنها الإحساس أو الشعور بالانتماء والارتباط بأفراد الأمة، أي هي تلك الروابط النفسية، والثقافية التي تربط مجموعة من الناس، وتجعل الفرد فيها ينفعل بانفعالاتها، ويرتبط بحاضرها ومستقبلها، ويتشرب لغتها وثقافتها.

وعرّفها البعض، بأنها مبدأ سياسي اجتماعي، يفضل معه صاحبه كل ما يتعلق بأتمته على سواه، مما يتعلق بغيرها، أو هي عقيدة تصور وعيا جديدا، يمجّد فيه الإنسان جماعة محدودة من الناس، يضمها إطار جغرافي ثابت، ويجمعها تراث مشترك، وتنتمي إلى أصول عرقية واحدة.

وبالنسبة للمفكر محمد عمارة، فإن مصطلح القومية، مشتق من مادة "قوم"، التي وردت في القرآن الكريم 384 موضعا، غلبت عليها جميعا الدلالة على الجماعة المحددة بحدود، والمجموعة تحت مظلة روابط معينة، فهي تطلق على المجتمع المتميز بصفات تجمعها، و" قوم " الرجل، هم شيعته وعشيرته، كما أن قوم كل رسول، هم مجموع الأمة التي بعثه الله لهدايتها.

ويذهب الباحث هاني الهندي إلى القول: إن القومية العربية هي فكرة تهدف إلى تحقيق وحدة الأمة العربية وإقامة دولة واحدة لها في الوطن العربي الكبير، وبناء نهضة جديدة بعد قرون من الغياب شبه الكامل عن مسيرة التاريخ الإنساني، فالقومية في جوهرها، دعوة لتأكيد هوية الأمة، وإبراز شخصيتها الخاصة المميزة أمام الغير.

وخلص المؤرخ أبي القاسم سعد الله، إلى القول: " من الممكن تعريف القومية، بأنها حركة أيديولوجية وعاطفية وثقافية وسياسية، تستهدف توحيد جميع العرب، باعتبارهم ينتمون إلى أمة واحدة، تشترك في التاريخ واللغة والحضارة والمصير المشترك، إنها حركة أيديولوجية، لأن لها مضمونا فلسفيا وإنسانيا، وهي حركة عاطفية، لأنها تقوم على رد فعل جماهيري وغيره على التراث القومي، وحماس روحي لتحقيق رسالتها، وهي حركة ثقافية لأنها تؤمن بإيجابية الحضارة العربية ماضيا ومستقبلا ، وأخيرا، فهي حركة سياسية، لأنها ترمي إلى الوحدة الشاملة بين أجزاء الوطن العربي، ومن الواضح، أن القومية العربية بهذا المعنى، ليست حركة عنصرية ولا طائفية إنها ببساطة واختصار، حركة قومية ، دفاعية، إنسانية " .

ومن الشائع اليوم الاستخدام التقابلي بين المتبادل بين مصطلحي القومية والأمة للدلالة على : مجموعة بشرية ذات وجود مادي ملموس، يرتبط أعضاؤها بروابط مادية ومعنوية، ذاتية وموضوعية، فعلية وافترضية مثل وحدة الأصل والانتماء، ووحدة اللغة، والطابع

الحضاري، والمعتقد والتاريخ، والمصالح والأهداف، وأكثر الأحيان وحدة الإقليم الجغرافي أو اتصاله.

دوافع انبعاث الحركة القومية العربية: نظرا إلى اختلاف الأوضاع السياسية والاجتماعية والاقتصادية في أقطار الوطن العربي، كانت انطلاقا القومية العربية ومسيرتها متباينتين، ففيما كانت أجزاء عديدة من المشرق العربي في النصف الثاني من القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين، خاضعة للسلطة العثمانية، كانت بقية الأقطار العربية الأخرى مشرقا ومغربا تقع تحت السيطرة الاستعمارية الأوروبية.

ومن هنا يمكننا تلخيص الدوافع التي أدت إلى انبعاث هذه الحركة في النقاط الآتية:

- السياسة التركية تجاه العنصر العربي ولاسيما في فترة حكم التنظيم المتطرف جمعية الاتحاد والترقي التي أوصلت الإمبراطورية في نهاية المطاف إلى التفكك وإلغاء الخلافة.
- انتشار الأفكار القومية في القارة الأوروبية، وتسربها إلى المنطقة العربية على مراحل متعددة وبآليات متنوعة، علاوة على اندلاع الحركات الانفصالية القومية عن الإمبراطورية العثمانية، كما حصل في منطقة البلقان.
- الهجمة الاستعمارية الغربية، وما صاحبها من تدمير للذات العربية، مما أدى إلى تعميق الإحساس بضرورة استعادة الكيان العربي، الذي تعرض للإبادة المادية والمعنوية.

وفي سياق الخطوات العملية لبداية تبلور الفكرة القومية، يرى جورج أنطونيوس، أن أول جهد منظم في حركة العرب القومية، قد وقع عام 1875م عندما ألف خمسة شبان مسيحيين، ومنهم فارس نمر جمعية سرية ببيروت، ضمت اثنتان وعشرون شخصية من مسيحيين ومسلمين، ولما كانت أهدافهم ثورية صريحة، فإنهم لم يستطيعوا الاستفادة من وسائل النشر والإعلان فكانت اجتماعاتهم سرية، لتدارس الواقع، ووضع الخطط ونشر الأفكار السياسية بوسائل خاصة كالاتصالات الشخصية، ثم اختاروا وسيلة لصق المنشورات في الشوارع بشكل خفي، وتحت جنح الظلام وكان هذا الفعل يجد بعض الصدى في اليوم الموالي، حينما يتجمع الناس لقراءة هذا الجديد، وكانت هذه المنشورات تتضمن تنديدا عنيفا بمساوئ الحكم التركي، وتهيب بالسكان العرب أن يثوروا عليه ويطيحوا به، ومهما يكن من أمر، فإن نداءات تلك الجمعية، كانت أول صرخة استنفار أطلقتها الحركة العربية الوليدة، فقد كانت أول جمعية تؤلف والهدف السياسي غايتها الأولى.

وقد أوردت العديد من الأدبيات المعبرة عن أنصار الفكر القومي، تلك المناداة التي ألقاها إبراهيم اليازجي (1847-1906م) في قصيدته المشهورة، منطلقا بارزا لبداية الحديث عن

تحفز هذا الفكر، فقد قال: تنبهوا واستفيقوا أيها العرب ... فقد طمى الخطب حتى غاصت الركب.

بالله يا قومنا هبوا لشأنكم ... فكم تنادىكم الأسفار والخطب.

ألستم من سطوا في الأرض واقتحموا ... شرقا وغربا وعزّوا أينما ذهبوا
وقال أيضا: أقداركم في عيون الترك نازلة ... وحقكم بين أيدي الترك مغتصب.
فيا لقومي وما قومي سوى عرب ... ولن يضيع فيهم ذلك النسب.

والظاهر أن عمل الجمعيات والتنظيمات، قد أخذ يتزايد نشاطه وغاياته، ففي عام 1881م، أنشئت جمعية سرية أخرى هي " جمعية حقوق الملة العربية "، تكونت من المثقفين العرب في بيروت، ودمشق وطرابلس، وصيدا، وكانت تنادي بالوحدة الإسلامية المسيحية، ضمن الإطار القومي العربي وتوزع المنشورات المخطوطة باليد، التي تحت العرب على الاتحاد واليقظة والتمرد على استبداد السلطان عبد الحميد الثاني، وقد جاء في أحد منشوراتها: " أين أنتم وأين هم؟ من منكم اليوم أمير ومن منكم اليوم وزير ... بل كل واحد منكم فقير وكبيركم مثل صغيركم حقير ".

وفي الفترة نفسها، ظهرت دعوة جديدة تقول بإقامة خلافة عربية، مقام الخلافة العثمانية، على يد عبد الرحمن الكواكبي في كتابه " أم القرى "، فقد تناول مسألة الخلافة، وألقى بذور الشك في صحة اعتبار السلاطين العثمانيين خلفاء للمسلمين، ودعا إلى حق العرب في الخلافة، ودعا إلى ثورة العرب على الأتراك حيث قال: " أجدادكم ينامون الآن في قبورهم مستوين أجراء، وأنتم أحياء معوجة رقابكم أذلاء ".

وبفعل هذه الحركات والجمعيات، تبلورت المفاهيم القومية، وأضحت المنطقة العربية تمر بنشاطات أدبية وسياسية، تدعو إلى اللامركزية والاستقلال، وأصبح عنصر المفاجأة بالنسبة إلى الإنسان العربي، شيئا عاديا حيث يترقب انبلاج حياة جديدة، تعيد إليه مجده وعزّته، وقد جاءت انطباعات أحد الرحالة الفرنسيين الذي زار بلاد الشام في سبعينيات القرن 19م، تأكيده على انتشار علائم الامتعاض من الأتراك، والرغبة في التخلص من حكمهم، وقد كتب عن ذلك يقول: " لقد قابلت في كل مكان ذلك الإحساس الواحد الدائم المشترك كراهية الأتراك ".

كان لسياسة تركيا الفتاة العنصرية، أكبر الدور في تنوير العرب على قضاياهم القومية، ومطالبهم العربية لأنها عملت تحت غطاء الجامعة الإسلامية، على ضرب القوميات غير التركية، وتذويبها في العنصر الطوراني التركي، وصبغ الحياة العامة بالتركية: " علينا أن

نعمد إلى الجيش والأسطول والعلوم والآداب والشرائع والقوانين وكل شيء فنصبغه بالصبغة التركية المحضة "

إن كره الأتراك للعرب، جعلهم يطلقون صفات مهينة جرت على ألسنتهم مجرى الأمثال: فهم يسمون عرب الحجاز، بتعبير ويلنجي عربي، أي العرب الشحاذين، ويطلقون على المصريين، كور فلاح، أي الفلاحين الأجلاف، ويستعملون لفظة بس عربي، أي العربي القذر، بل أن بعض الغلاة عمدوا إلى شن ما عرف بحملة تطهير لغوية، شملت التخلص من الكلمات العربية في اللغة التركية، وراحوا يعملون على إحياء الماضي من خلال الاعتزاز برموز مثل: جنكيز خان، وهولاكو، وتيمور لنگ، ووصل الأمر ببعضهم إلى حذف أسماء الصحابة من المساجد، وتعويضهم بأسماء أولئك الملوك، وأمام هذا الواقع، قام العديد من رجالات النهضة يدحضون مزاعم الأتراك، ويلهبون مشاعر العرب القومية.

يلخص الكواكبي النفور المستحکم وقتئذ بين العرب والترك، حيث يذكر الرد العربي على الإساءات اللفظية التي كان يتلقاها بقوله: " هذا، والعرب لا يقابلونهم سوى بكلمتين: ثلاث خلقن للجور والفساد القمل والترك والجراد "، والكلمة الثانية تسميتهم بالأورام، كناية عن الريبة في إسلامهم، والواقع، أن مثل هذا النفور لا يجد صداه في لغة قوم، إلا إذا كان متأصلاً في أذهان الشعب، عريقاً في تفكيرهم.

ويقول أنطونيوس عن مراحل القومية المتدرجة " ومن طبيعة المزاج العربي، أن يدرك الأمور في أجزاء وفترات متقطعة، أكثر من إدراكه لها إذا جاءت في خطة متكاملة، قائمة على جهود متواصلة، ولذلك، كان تاريخ الحركة القومية بمثابة سجل لانفجارات متوهجة، تتخللها فترات من التوقف والتأهب "

////////////////////////////////////

المصادر والمراجع:

- عامر حسن فياض وعلي عباس مراد، القومية والأمة، ط1، العربي للنشر والتوزيع، د.م، 2017م.
- محمد الغزالي، حقيقة القومية العربية وأسطورة البعث العربي، ط3، نهضة مصر، 2005م.
- مجموعة مؤلفين، قراءات في الفكر القومي، ط1، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 1993م.
- هاني الهندي، الحركة القومية العربية في القرن العشرين، ط2، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت 2015م.

- جورج أنطونيوس، يقظة العرب، ط8، دار العلم للملايين، بيروت، 1987م.
- منذر معاليقي، معالم الفكر العربي في عصر النهضة العربية، دار اقرأ، بيروت، د.ت.
- علي المحافظة، الاتجاهات الفكرية عند العرب في عصر النهضة، ط5، الأهلية للنشر والتوزيع، بيروت 1987م.